سرب الطائرات الأمريكية والطوارئ على حدود ليبيا

محمود عبد المنعم مراد

التحرير

في صباح الاثنين الماضي، زارتني شخصية ليبية كبيرة تعيش في القاهرة، وسألني الزائر الكريم، عن مطار غرب القاهرة، وهل يقع بالقرب من حدود ليبيا؟ وفوجئت بالسؤال، ورددت بلا جواب. ذلك أني لا أعرف أين يكون المطار، وإذا كنت أعرف، فليس لي أن أجيب. لأن تلك مسألة عسكرية. ولكن الذي استوقفني من سؤاله هذا، هو الربط بين مطار غرب القاهرة، وبين الحدود الليبية. وشعرت خلال الحديث بأنه يتمنى، كما يتمنى الكثيرون ممن أعرفهم من الليبيين الكبار والصغار أن تكون مصر قد أعدت العدة لإسقاط نظام القذافي. وقلت إني أرى أن هذا الموضوع هو من اختصاص الشعب الليبي وحده.

وفي مساء اليوم نفسه، عقد السيد منصور حسن وزير الدولة للثقافة والإعلام مؤتمراً صحفياً قال فيه أن الحكومة تقدمت إلى مجلس الشعب بمشروع قرار لفرض قانون الطوارئ على الحدود الغربية مع ليبيا. وقال إن مصر ألغت قانون الطوارئ، ولكنها إزاء التهديدات الليبية السافرة رأت أن تأخذ حيطتها لمنع وصول المتسللين والمخربين عبر الحدود الليبية المصرية، وخاصة بعد أن أعلن العقيد القذافي في خطاب له أذيع على الهواء أن ليبيا سوف توجه أسلحتها إلى القوات المصرية المرابطة في المنطقة الغربية.

ومع ذلك فلم أجد رابطاً يربط بين إعادة حالة الطوارئ إلى حدودنا مع ليبيا، واستدعاء أسراب الطائرات الأمريكية للتمركز في مطار غرب القاهرة. فالموضوعان منفصلان، ولا علاقة لأحدهما بالآخر. وإن كان الموضوعان قد أثيرا في يوم واحد.

والموضوع الأول واضح لا يحتاج إلى شرح أو بيان. فمغامرات القذافي أصبحت من الأنباء المتواترة التي تبعث على السأم. وتدخلاته في شئون الدول المجاورة يعرفها كل قارئ للصحيفة. أو مستمع لراديو، في تشاد والسودان وأفريقيا الوسطى وتونس، ومغامراته مع مصر التي لقنته درساً لعله لم يستطع نسيانه بعد. أما جرائمه مع مواطنيه، فليست بخافية على أحد. فهو يمارس الإرهاب الرسمي العلني معلناً ذلك بنفسه، متفاخراً به. وسقطت ضحاياه في لندن وروما وغيرهما من العواصم الأوربية، مما اضطر بريطانيا إلى طرد سفيره لديها، لأنه يحمي القتلة الليبيين المؤتمرين بأوامر العقيد. وليس في التاريخ كله سابقة لمثل هذا الجنون السياسي الإجرامي، صحيح أن دولاً عربية أخرى تمارس القتل أو التصفية الجسدية كما يسمونها الآن، ضد معارضيها، ولكنها لا تعترف علانية بقيامها بهذه الجرائم البشعة على الملأ، ولا تفخر بارتكابها. بل تتنصل منها وتدعي أنها غير مسئولة عنها. إما أن يعلن رئيس دولة أنه سيقتل كل معارضيه في الخارج، وينفذ هذا الوعيد ويفخر به، فذلك أقرب ما يكون إلى الهوس والجنون.

وفي الحديث الذي نشرته الأهرام في الأسبوع الماضي للواء أبو غزالة رئيس الأركان عن الأسلحة المكدسة الآن في ليبيا، وعن التهديد العلني الصريح الذي أذاعه معمر القذافي بنفسه على الهواء، مؤكداً أنه سيوجه هذه الأسلحة إلى قواتنا المصرية، ما يبرر إعادة حالة الطوارئ إلى منطقة الحدود مع ليبيا، بل يبرر ما هو أكثر من ذلك بكثير. فلسنا نريد أن نعيش تحت تهديد رجل مجنون مفلوت العيار، يضرب ذات اليمين

منصور حسن

وذات اليسار، ويضحك عليه الروس، ويأخذون عائداته النفطية ليعطوه بثمنها أسلحة متطورة مكدسة لا يقوى على استخدامها كل القوى البشرية التي تعيش في بلاده، فيستخدم لها المرتزقة القادمين من أنحاء الأرض، لينفذوا خطط موسكو، وليطوقوا مصر، وليهددوا دول القارة الأفريقية وينشروا الذعر في كل مكان.

وباستطاعتنا وحدنا أن نوقف ذلك كله، وأن نعيد الرشد إلى هذا العقل المجنون. ولسنا في حاجة إلى مدد عسكري أمريكي يساندنا في أية عملية تأديب وتهذيب، لو أردنا القيام بها في أية ساعة من أي نهار. ولكنا يجب أن نعد العدة لكل احتمال. ويوم تستهويه المغامرة المجنونة، أو يثق الأمر من سادته المحركين للزنبرك الموضوع فيه، فسوف يعرف أن آلاف الطائرات والدبابات التي اشتراها بآلاف الملايين من الجنيهات، لن تحميه من الدرس القاسي الذي ينتظره، إن كان قد نسي اللطمة الصغيرة التي تلقاها على خده في المرة السابقة.

أما عن أسراب الطائرات الأمريكية، فقد شرح الفريق كمال حسن علي الهدف من استدعائها وتمركزها في مطار غرب القاهرة، بقصد تدريب الطيارين المصريين على استخدام أحدث طائرات القتال. وليست المسألة إذن خطة عسكرية مصرية أمريكية مشتركة لضرب القذافي وإسقاط نظامه. وما أظن أن سقوط نظامه يحتاج إلى خطة عسكرية مشتركة، لأن أبسل وحده للسقوط. والصرح المائل مهما يكن مدعماً بالسلاح فهو مائل، ولا يصح إلا الصحيح.

البيان الأوربي

صدر البيان الأوربي عن مشكلة الشرق الأوسط، وكأنه لم يصدر. فقد تجاهلته الصحف ووسائل الإعلام الأخرى، لا في مصر وحدها، بل في سائر أنحاء الدنيا. ولست أستطيع أن أحكم لها أو عليها لتجاهل هذا البيان وردود الفعل الناتج عنه.

لقد اجتمع رؤساء وزارات دول أوربية تسع في مدينة البندقية يومين. وقيل قبلها إن الدول الأوربية سوف تتقدم بمبادرة بديلة عن اتفاقيتي كامب دافيد، وهددت أمريكا، ورفضت إسرائيل، ووافقت مصر بشرط أن تكون المبادرة، لا بديلا عن الاتفاقيتين، ولكن مكملة لها ومؤيدة لمحتواهما وسائرة في طريقها. ثم قيل إن الدول الأوربية سوف تتقدم باقتراح لمجلس الأمن لتعديل القرار رقم ٢٤٢. بحيث يعترف للفلسطينيين بحق تقرير المصير، ويعتبر مشكلتهم مشكلة سياسية، لا مشكلة لاجئين، وأنذرت أمريكا باستخدام حق الاعتراض. ووقعت الدول العربية في حيص بيص، وبادرت إسرائيل بالهجوم والطعن والتحدي، وما لبث الفلسطينيون أن قالوا إن هدفهم هو تصفية إسرائيل عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً وفكرياً. وهكذا وجدت الدول الأوربية نفسها عاجزة عن القيام بأي دور، وكأن اجتماعها وبيانها الصادر بعد مداولات يومين لم يسفر إلا عن العبارة العامة المصرية الشائعة «طظ فش! ادفع القرش!».

فالبيان الأوربي لم يهاجم أمريكا ومبادرتها. وفي الوقت ذاته لم يؤيد اتفاقيتي كامب دافيد صراحة، ولم يهاجمهما صراحة أيضاً. والبيان لم يهاجم إسرائيل، لأنه دعا إلى العيش معها في سلام، داخل حدود آمنة معترف بها. ولم يؤيد إسرائيل أيضاً لأنه دعاها إلى احترام حقوق الفلسطينيين، والتفاوض معهم، وبخاصة مع منظمة التحرير الفلسطينية، التي لا تعترف بوجود إسرائيل. والبيان لم يتحيز للفلسطينيين، لأنه دعا العرب إلى العيش مع إسرائيل في

الملك حسين

سلام ، ولم يتحيز ضدهم لأنه دعا إلى منحهم حق تقرير المصير .

وهكذا كان البيان فريداً فى باب الدبلوماسية الحديثة ، لأنه لم يهاجم أحداً ولم يناصر أحداً . وفى الوقت نفسه ، هاجم الجميع ، وناصر الجميع . وركب المجتمعون الجندول واستمتعوا بالرحلات البحرية فى قنوات البندقية . وتصافحوا وتحدثوا فى مسائلهم الخاصة . وأضافوا إلى البيان فقرة عن لبنان المتربع المسكين ، وضرورة الحفاظ على أمنه وسلامته ووحدة أراضيه . وكل هذا هو ما نسميه «طظ فش» ويبقى على العرب أن «يدفعوا القرش» .

وحتماً سيدفعونه . وإن كان يخيل إليهم أنهم يقبضونه ، على شكل عائدات البترول . ولكل ما تقدم ، أراني فى حيرة . هل أغضب على صحفنا ووسائل إعلامنا تجاهلها لهذا البيان ، أم أحمد لها الحذر فيما فعلت . والأمر بعدئذ متروك للقارئ . يقرر بنفسه ما يراه .

رحلة الملكين

ومن قبيل هذا التجاهل لما يدور بين العرب وأوربا هذه الأيام ، هاتان الرحلتان الميمونتان اللتان قام بهما ملكان عربيان ، لدولتين كبيرتين . إحداهما الزيارة التى قام بها جلالة الملك خالد السعودى لمدينة بون عاصمة ألمانيا الغربية ، وهى زيارة تعد الأولى من نوعها حيث لم يسبق أن قام ملك سعودى بمثل هذه الزيارة . والثانية هى الزيارة التى قام بها ، جلالة الملك الحسين الأردنى لواشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية ، بعد خصام وانقطاع دام عامين ، عقب توقيع اتفاقيتى كامب دافيد ، ورفض الملك الأردنى المشاركة فيما تقضى به الاتفاقيات من مفاوضات .

ولا شك أن الملك خالد قد تحدث مع المستشار الألمانى عن مشكلة الشرق الأوسط ، وعن ضرورة انسحاب إسرائيل من الأرض العربية المحتلة . وما من شك أن المستشار الألمانى سيوافق جلالته على ذلك . ولكن ماذا بعد ؟ الأهم من ذلك كله والأجدى ، هو الحديث عن العلاقات الاقتصادية والتجارية بين البلدين ، فالسعودية هى أكبر مصدر للنفط إلى ألمانيا الاتحادية ، ولألمانيا مصالح ومشروعات وتوريدات واسعة النطاق فى السعودية .

أما جلالة الملك حسين ، فقد أعلن الرئيس كارتر ومساعدوه والمتحدثون باسمه ، أنه سوف يتعرض لضغط أمريكى وحملة إقناع مكثفة ليشترك فى محادثات الحكم الذاتى للفلسطينيين . وقد بدأ الحوار بين الملك الأردنى والرئيس الأمريكى الآن . وأنا أكتب هذه السطور .

الملك خالد

ولا أعلم ماذا يكون من أمر الضغط الأمريكى على العاهل الأردنى ، فلم تعد أمريكا هذه الأيام هى أمريكا ، حتى إن بعض المعلقين قالوا ، إن الذى سيحدث هو العكس ، وهو أن يقوم الملك حسين بمحاولة إقناع الرئيس كارتر بالقيام بمبادرة جديدة بعد أن توقف سير المحادثات المتفرعة عن اتفاقيتى كامب دافيد . وما أظن الرئيس الأمريكى سوف يستجيب لضغط الملك الأردنى ، لأن الولايات المتحدة تستطيع أن تستغنى عن المعونة المالية التى يمكن أن تتقاضاها من المملكة الأردنية الهاشمية !

ومع ذلك فزيارة الملكين الكبيرين للدولتين الكبيرتين ، زيارة هامة ومفيدة . ولم يكن بيان دول السوق الأوربية الصادر من البندقية هو نهاية المطاف . ففى خلال هذه الأيام تعقد اجتماعات لدول العالم الصناعية الكبرى السبع ، وهى أمريكا وكندا واليابان ، ومعهما بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا . وستدرج ضمن جدول الأعمال مشكلة الشرق الأوسط ، مثلما تدرج فى كل اجتماع ، للأمم المتحدة ، أو لمجلس الأمن ، أو للسوق الأوربية أو لأى كائن من كان . ولكن كارتر سيحضر هذا الاجتماع ، الذى سيعقد فى نفس القاعة بالبندقية ، ومعه رؤساء دول الغرب الصناعية . وسيكون لديه ولدى المستشار الألمانى بعد اجتماعها بالملكين العربيين ، فكرة محددة واضحة عن المواقف العربية ، ولا أقول عن الموقف العربى . فلعل الهداية ترفرف بجناحيها على هذا الاجتماع ، ويسفر عن بيان جديد ، يهدئ من نفوس البعض ، ويثير نفوس الآخرين . ولا يحل مشكلة !

السرقات والحرائق

فى كل صيف ، عندما يحين موعد الحرد ، تشب الحرائق ، لتخفى ما وراءها من جرائم السرقة أو الاختلاس ، وتضيع المستندات وتحترق الوثائق ، ويفوز بالغنيمة من دبر الحريق ، وجلس فى بيته مثل نيرون يشرب ويطرب بينما روما تحترق .

والغريب أن هذا يحدث فى كل عام ، ولا يتعظ أحد ، ونحن فى نهاية القرن العشرين ، حيث استطاع العلم الحديث أن يبتكر وسائل مستحدثة للأمن ، وحفظ المستندات ، والإنذار بالحريق قبل اندلاعه ، بل معرفة فاعليه ومديريه ومرتكبيه ، وفى أى وقت بدأ ، وكيف بدأ ، بعود ثقاب أو عقب سيجارة أو زجاجة بترين أو ماس كهربائى ، ولكننا رغم هذا كله ، نخسر الملايين كل صيف ، ولا نعرف أسباب الحريق ، ونقيد الحادث ضد مجهول ، وعفا الله عما سلف .

وهكذا فى غمضة عين ، احترقت دار الأوبرا المصرية ، واحترقت محلات جاتينيو ، واحترقت منذ أسبوع محلات شركة بيع المصنوعات المصرية ، ومن يدرى ما الذى ستحمله الأنباء غداً أو بعد غد من أنباء حرائق المحلات والمصانع والمخازن ، لا قدر الله ، وتجتمع اللجان وتنفض ويبقى الفاعلون بعيدين عن يد العدالة .

ونحن لا نملك إلا التوجه إلى السادة اللصوص والمختلسين بالرجاء الحار ، أن يفكروا فى طريقة لإخفاء جرائمهم ، غير طريقة إشعال النيران فى الوثائق والمستندات ، لأن هذه النار تمتد بطبيعة الحال إلى السلع المعروضة للبيع ، وإلى الأثاث ، وقد تمتد إلى مبان أخرى يملكها أناس عاديون . فنأتى على ما بين أيديهم وما وراءهم من مال أو ثروة . نحن لا نملك سوى الرجاء أن يكون فى قلوب هؤلاء اللصوص رحمة . نحن نعرف أن الدنيا غلاء ، وأن المرتبات لا تسعفهم لسد احتياجاتهم وتطلعاتهم التى لا تنتهى ، ولا تسد مطالب زوجاتهم من فاخر الثياب ، وتوادر المجوهرات ، والسيارات الأنيقة ، وحفلات الزواج والطلاق ، وأعياد الميلاد السعيدة . كيف يمكن أن تفى هذه المرتبات بكل هذه النفقات الباهظة ؟ وأين يولى الموظف وجهه أمام أقاربه وأصحابه ، وهو الذى يجرى الملايين أمامه ، ولا يأخذ منها إلا كبشة صغيرة كل شهر كرواتب ، وكبشة أخرى كحافز ، ولا شئ بعد ذلك ؟ ومن أين يأتى بالرضا بالواقع ، ويخشى الضمير اليقظ ، ويراعى الله . إن مال الحكومة هو ماله ، ولن تفلس الحكومة إذا انقض على عشرات الألوف ، ثم أشعل النار وانصرف .

والسرقة شائعة ، وآثارها محصورة فيما سرق . أما النار والعياذ بالله ، فهى شديدة الوطأة ، تمتد ضحاياها إلى أبعد مما نتوقع . والمصيبة أن موسم هذه الحرائق لا يجئ إلا فى عز الحر ، حيث تشتد النار وتمتد وتتسع ، فإذا لم يكن الرجاء مقبولاً منهم بالكف عن إشعال الحرائق ، فليجعلوا موعدها فى الشتاء ، حيث تتساقط الأمطار فتخف آثار الحريق وتقل الخسائر .

اللهم قد بلغت . اللهم فاشهد !

الشهر المبارك

بعد أقل من عشرين يوماً ، يحتفل بحلول شهر رمضان المبارك . كل سنة وأنتم طيبون . إنه شهر الصيام ، ومع ذلك فقد دبرت أجهزة الدولة من الأموال الطائلة ، بالعملات الأجنبية الحرة ، كل ما يلزم الشهر العظيم من لوازم . لحوم وطيور وأسماك وسمن وزيت وفلح ودقيق فاخر ، بالإضافة إلى ما يسمونه بالياميش وإن كانت لا أعرف أصل هذه الكلمة ، وقد بحثت عنها فى القاموس ولم أجدها .

والأصح إذن أن يسمى الشهر المبارك بشهر الطعام ، حيث تتوافر فيه كل أصنافه ، وحيث يبلغ الاستهلاك الآدمى أقصاه ، وتتحمل الدولة ، كما تتحمل الأسر والأفراد أقصى ما يتحملونه ، استجابة لنداء المعدة !

وليس هذا من الدين فى شىء . ولا من الصحة ، ولا من الاقتصاد . صحيح أن الجائع يحلم بالطعام ، وينتظر انطلاقة المدفع بفارغ الصبر ، ليعوض ما فاته طول النهار وينهال على ألوان الطعام نهماً حتى تمتلئ بطنه ، ويستريح قليلاً ، لا يعرف كيف يمشى ولا كيف ينام ، حتى تأتيه العزيزة تبالى بفوازيرها المسلية ، فتنسيه التخمة التى يشعر بها وتساعده على قضاء الوقت الضائع فى هضم ما امتلأت به المعدة من نشويات ودهنيات وبروتينات وأشياء كثيرة لا أستطيع أن أصفها .

ويتحدث رجال الدين كل يوم عن فضائل الشهر المبارك ، وعن كلمة الصيام ، وعن ضرورة الشعور بالجوع ، لتمتلئ النفوس بالرحمة والموعظة الحسنة . ولكن هيهات الأذن تسمع ، ولا تعى ، وتحتى الحكمة وراء نداء المعدة ، ويأكل الصائم أضعاف ما يأكله المفطر . ولا أظن ذلك هو الصيام الذى فرضه الدين ، ولا أظنه يتمشى مع قواعد الصحة التى ينصح بها الأطباء ، ولا قواعد الاقتصاد وبخاصة فى مثل هذا الغلاء الشديد .

وسوف تظل الصحف تستعين كل يوم بخبيرات التدبير المنزلى ، يقدمن كل صباح قائمة بأطباق اليوم الشهية . وربما استعان بهن التليفزيون ، ليعرض على ربات البيوت بالصوت والصورة ، طريقة صنع أصناف الحلوى ، والفطائر المحشوة باللحم المفروم ، أو بالجوز واللوز والسكر .